إشكالية اللغة الفرنسية
في القرن الحادي والعشرين

ترجمة ربى المعدني

السيد الرئيس ..

ترددت قليلاً في إجابة الدعوة اللطيفة التي وجَّهها إليَّ مجمع اللغة العربية، لكنني اعتقدت أنكم ستعذرونني لما ستسمعونه من لهجة سيئة، وأخطاء لغوية، وعبارات غريبة، وذلك كله مراعاةً للهدف الذي نعمل له بإخلاص وهو معرفة التعاون بين عالمينا العربي والفرنكفوني.

وعندما كنت في الطائرة بحثتُ عن قدوة تلهمني القول فتداعى إلى ذهني مقطع من كتاب ((مذكرات الحرب)) للجنرال ديغول، حين يستذكر رحلته إلى سورية عام 1944م وقد مضى على ذلك الحدث واحد وستون عامًا، يقول:

((نحو الشرق الغامض، كنت أطير حاملاً أفكارًا بسيطة)) .

اسمحوا لي، سيدي الرئيس، أن أرتفع وأطير نحوكم – وبالطبع ليس بارتفاع الجنرال ديغول – ولكن برفقة فكرة بسيطة: وهي فكرة (إعادة البناء).

ولكن ما هو الشيء الذي سنعيد بناءه ؟..

إنها إعادة بناء العلاقات المتميِّزة بين العالم العربي والفرنكفوني والتي ازدهرت طوال القرن التاسع عشر، ثم انحسرت مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

وحين أطرح أمامكم اليوم إشكالية اللغة الفرنسية في العالم، فلا أهدف من ذلك إصدار صيحة افتخار على النمط الفرنسي، بل لأني أعتقد أن إشكالية اللغتين؛ العربية والفرنسية متشابهة في شواطئ المتوسط أكثر منها في باقي دول العالم.

ولا يخفى على أحد أن العلاقات بين عالمينا ليست على المستوى المطلوب، لا من الناحية الديمغرافية ولا من جهة التاريخ أو التداخل أو من جهة المنافع الثقافية والاقتصادية والسياسية.

سنثير سخرية العالم من حولنا إذا تجرَّأنا على القول أنه لا علاقة تربط اللغة والثقافة بالسياسة، بل على العكس تمامًا، لا وجود للسياسة إلا مع وجود اللغة والثقافة لأنهما تشكِّلان الأداة التي تساعد على إيجاد تصوُّر عن العالم ومستقبله.

وقد يقول بعضهم إن هناك العديد من نقاط الخلاف والتباعد بين سورية وفرنسا، ولكن يجب ألا يمنعنا هذا من أن نعطي دفعًا جديدًا لعلاقاتنا.

لنتأمل بموضوعية الحالية الراهنة: إن كل مجموعة من الفريقين يمتلك وزنًا ديمغرافيًا مماثلاً للآخر، وهناك حوالي (300) مليون

شخص من الجهتين مع وجود قسم غير ضئيل منهم يتحدث باللغتين معًا.

والمشاكلُ مُتشابهةٌ إلى حد بعيد.

إن ما بين الدول العربية من تباين وتغاير مماثل لما بين الدول الفرنكفونية، وهذا ما نجده في الخليط الذي تتشكَّل منه الأمم المتحدة: الدول الغنية والفقيرة، الدول المهيمنة والمهيمن عليها، الدول النفطية وغير النفطية، الدول الدينية والملحدة إلخ...

وتشكِّل اللغة لكلٍ منا الرباط الوثيق الوحيد الذي لا يمكن لأحدنا – بكل صراحة – أن يحوِّله إلى إسمنت مسلح.

ومع أننا نشكو من عصر الانحطاط الذي تمر به اللغة الفرنسية، يمكن التأكيد على أن هذه الحقبة هي التي نجد فيها أكبر عدد من الأفراد الذين يتكلمون الفرنسية في العالم، علمًا أنها ليست لغتهم الأم، ومن هنا نرى أن وضع هذه اللغة يشتد بذلك.

وينبغي لنا أن نُظهر تنوع هذا العدد المشجِّع .

وإننا حين نقول: إن كلاً من العالمين العربي والفرنكفوني يتكون من حوالي ثلاثمئة مليون شخص فإننا نعني بذلك أولئك الذين يمارسون التحدث باللغة، إلا أننا لا نستطيع تحديد العدد الصحيح للقادرين فعلاً على ممارستها قراءة وكتابة.

ونلاحظ أن لدى الطرفين نزعةً إلى إضعاف اللهجات العامية واللغات الإقليمية تحت ضربات الحداثة، وكذلك بسبب التمازج الجماهيري المرتبط بعامل إنشاء المدن، وتطور رحلات السفر، وطغيان وسائل الإعلام، وتقدم التعليم.

وتشهد اللغتان العربية والفرنسية تقدمًا بصفتهما اللغة الأم للعديد من الناس، إلا أنهما تواجهان ضعفًا بدورهما العلمي مقابل اكتساح اللغة الأنجلو ساكسونية.

وتواجه بلداننا الصعوبة نفسها في محاولتها محو الأمية وانعدام الثقافة. كما نمتلك الطموح نفسه في النهوض بلغاتنا لتكون قادرة على الاستجابة لمتطلبات التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلداننا، مع ضرورة وضع علم للمصطلحات قادر على التعبير عن حقائق العلم الحديث، كما أنه يساعد على التكيف مع وسائل الإعلام وتطور التعليم لترسيخ النمو العقلي والتقني والصناعي، والمحافظة على سيادتنا اللغوية في العلاقات الدولية والاقتصاد والثقافة.

ويمكنني الاستشهاد بالكثير من نقاط الالتقاء:

كنت أقرأ يومًا في رواية روبنسون كروزو، ووجدت أنه حين عاد إلى مدينته بعد أربع سنوات من العزلة في جزيرة بعيدة، كان قد فقد القدرة عمليًا على مخاطبة الآخرين.

ومع مراعاة الفارق إلا أن هذا ما ستصل إليه شعوبنا على مر القرون لأنها لم تُغْن لغتها عن طريق الحوار مع العوالم اللغوية الأخرى، ويمكننا أن نحصي بعض الكلمات السلبية الموجودة في الفرنسية اليوم كما أن لغتنا تزدهر بحوالي (1500) كلمة عربية، سواء كنتم من منحنتمونا إياها أو أننا قمنا باصطيادها من لغتكم. كما أن هناك منفعة حيوية تجمع لغتينا وثقافتينا وشعبينا، وهي توثيق عرى العلاقات بيننا من الآن ولمدى طويل، إذا أردنا ألا تسحقنا رحى الثقافة الأنجلو ساكسونية، لأننا بالطبع لا نريد الطريقة الأميركية في الحياة. ومن الأهمية قبل كل شيء أن نعرف بعضنا جيدًا أو أن نعيد معرفة بعضنا البعض. ولكن كيف ستتحقق هذه المعرفة إذا كنا لا نمتلك الحد الأدنى من معرفة لغة الآخر؟

ومع ذلك أعترف أننا الفرنكفونيين، يجب أن نبذل باتجاهكم جهدًا أكبر من الذي تبذلونه. وبالنسبة لكلينا هناك مسألة استراتيجية على قدر من الأهمية، إذ تصوروا للحظة أن صورة العالم الفرنكفوني هي لوحة لليوناردودي فنشي وتمثل رجلاً مفتوح الساقين والذراعين ضمن دائرة محاطة بمربع، فيمثل الرأس أوروبا بما فيها: بلجيكا وسويسرا واللوكسمبورغ وطبعًا فرنسا وإمارة موناكو.

أما الجذع فهو إفريقية السوداء، والذراع اليمنى هي جزر الأنتيل وكيبك ومنطقة الأكادي وجزر القديس بيير وميكلون مع بعض الأماكن

في لويزيانا وشمال الولايات المتحدة. والذراع اليسرى تمثَّل: دول الهند الصينية السابقة والتي حاولت أميركا مرارًا إقصاءنا عنها لكن اللغة الفرنسية عادت إليها. وهناك العالم العربي ببلدانه الأربعة: المغرب والجزائر وتونس ولبنان .

ولكن هل أتجرأ على القول إن سورية تعدُّ إحدى الدول الفرنكفونية؟.

لقد انتظم العالم العربي هذا في حلقنا، وسكن في حَنْجَرَتنا وبلعومنا وجهازنا التنفسي أو أنه إذا شئتم يشكل منتصف الطريق بين دماغ وقلب العالم الفرنكفوني.

ولا تدرون أنكم تحتلون موقعًا حيويًا بالنسبة لمستقبل الفرنكفونية العالمية. ولم أكن لأقول هذا لولا ثقتي العميقة بكم.. إنكم تقعون في مركز جغرافيتنا وتاريخنا سواء أردنا ذلك جميعًا أم لا.

وإذا كان المتعصِّبون من الطرفين يعدون هذا ضعفًا، ويأسفون عليه، فلنجعله نحن قوة، ولنتحرك معًا نحو تحقيق تطور مشترك للأقلية التي تتكلم لغتين وهي قليلة العدد.

لقد تفضَّل السيد أمين المجمع وأطلعني على إحدى كنوز المجمع، وهي صورة تُظهر الأمير عبد القادر بصحبة شيخ دمشق، والخديوي إسماعيل مع فرديناند دولسبس عام 1863. وأسأل بصدقٍ: ألا يمكننا أن نفعل ذلك عام 2005؟

هلاّ نظرنا في ضمائرنا لنر ما يمكن لنا أن نقوم به سويةً وبشكل مباشر، ثم ندخل معًا في عمل لا تستطيع الملابسات السياسية إيقافه، ولا حتى إبطاء فاعليته. وخلال إقامتي الوجيزة، آمل أن أتمكن من تلبية رغبة الزملاء الجامعيين الراغبين في تحديث وتطوير أقسام اللغة الفرنسية في الجامعات.

كما يجب الاستفادة أيضًا من ترجمة قاموس الأكاديمية الفرنسية للطب إلى اللغة العربية لرفع مستوى التعاون في مجال الدراسات الطبية.

وأودُّ إضافة شيء آخر متواضع، ولكنّه ملح وهو: ألا تود سورية تحقيق التطور في مجال السياحة؟ فالمتاحف لا تتضمن أي نصوص مكتوبة بالفرنسية. وأقترح أن تزوَّد المتاحف باللوحات التعريفية المنقوشة باللغة الفرنسية، إضافة إلى اللغتين العربية والإنكليزية.

وفي مجال العلم والتقنية، فإن العالم الفرنكفوني يمكنه أن يقدِّم الكثير لسورية وأن يحقِّق معها الكثير، ولستم مضطرين لأن تأكلوا العلم مع الطماطم (وفق الطريقة الأمريكية).

وإذا كانت هذه النقاط الثلاث لا تشكِّل إلا بعض الأمثلة إلا أنني واثق أننا وخلال مدة قصيرة سنجد مجالات أخرى للتعاون، كما هو الحال مع المجلس الدولي للغة الفرنسية والتي لا تشكِّل ذرة في هذا العالم اللامتناهي..

إن سياستنا ليست أسيرة أمورنا المالية.

وبالنسبة لكم، أرى أنه يجب أن تساعدونا على تطوير التعليم وممارسة اللغة العربية في فرنسا، فهذه ليست مهمة أليكسو فقط. فهذه هي جاذبية وتكاملية العالم العربي بالنسبة لنا والتي يتوجَّب علينا دعمها، ومحاربة عجز التصور الذي نعاني منه اليوم لألف سبب وسبب، أسباب أعرفها كما تعرفونها، وهي داخلية وخارجية إلا أنها تضر بكم كما تضر بالآخرين وتحول بين تعلُّم الكثير من الفرنسيين للغة العربية.

يجب إعادة تشكيل أجيال من المستعربين ولا أقصد بالمستعربين الباحثين فقط بل أيضًا المختصين في جميع المجالات ممن يجيدون اللغة العربية والقادرين على استثمار مجالات التعاون المختلفة.

وإذا كنا مجبرين الآن على الحد من أهدافنا فيجب أن نمتلك سياسة بعيدة المدى، وكل ما نقوم به لن يذهب سدىً، وسيأتي مَنْ بعدنا وينهض اعتمادًا على الأسس التي وضعناها نحن بالطموح الكبير الذي تمَّلكنا.

الأمين العام للأكاديمية الفرنسية للطب:

أوبير جولي